أثر التمسك بالسنة في أوقات الفتن

تأليف
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الله بن عبد الرحيم البخاري
أستاذ الحديث المساعد بكلية الحديث الشريف في الجامعة الإسلامية

محاضرة ألقيت بمدينة أم البواقي
يوم ٢٣ رجب ١٤٣٢هـ الموافق ٢٥ جوان ٢٠١١م

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله نحمده تعالى ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هدي محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار، وبعد:

فإنَّ الكلام عن سنَّة رسول الله ﷺ لا يتَّسع له المقام، بل لو بقيتَ الدَّهر كلَّه تتعلَّم السُّنَّة وتدرسها ما وسعك الزَّمن، كيف وهي تتعلَّق بخيرة خلق الله الَّذي بعثه الله رحمةً للعالمين، أظهرَ اللهُ به الحقَّ ومحقَ به الشِّرك، فالدُّنيا قبل بعثته ﷺ قد ظهر في كثيرٍ من أطرافها وأماكنها الشِّرك بأنواعه وأضرابه، والظُّلم بجميع صوره، فكانت قريشٌ قبل مبعثه ﷺ مقيمةً على عبادة الأصنام، ومن حول الكعبة نحوٌ من

ثلاثمائة وستُّون صنمًا تُعبدُ من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا النَّبيُّ الكريم بعثه الله رحمةً للعالمين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ].

أخرج التِّرمذيُّ في «جامعه»[1]، وفي «الشَّمائل المحمَّديَّة»[2]، وابن ماجه في «سننه»[3]، وأحمد في «مسنده»[4]، وابن حبَّان في «الصَّحيح»[5] وهو صحيحٌ، عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لمَّا كان اليوم الَّذي دخل فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ أضاء منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظْلَمَ منها كلُّ شيءٍ، ولمَّا نفَضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنَّا لفي دفنه حتَّى أنكَرْنا قُلوبَنا»، وهذا تعبيرٌ عن شدَّة اللَّوعة بفراقه ﷺ، وانقطاع الوحي.

---

(١) برقم (٣٦١٨).

(٢) برقم (٣٧٥).

(٣) برقم (١٦٣١).

(٤) برقم (١٣٣١٢).

(٥) برقم (٦٦٣٤).

فالكلام عن سنَّته ﷺ تحتاجه دائمًا، والتَّذكير به مهمٌّ في كلِّ حينٍ وآنٍ، لتعلمها وتعمل بها بحقٍّ، وحاجتك إليها أشدُّ من احتياجك إلى الطَّعام والشَّراب، بل وإلى الهواء الَّذي تتنفَّسه، قال الله ـ جلَّ في علاه ـ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

لذا لمَّا كان الأمر بهذه المثابة؛ رغبتُ في حصر وقصر الكلام على نقاطٍ:

أوَّلًا: بيان معنى السُّنَّة، ومعنى الفتنة.

ثانيًا: ذكر بعض النُّصوص الآمرة بلزوم السُّنَّة.

ثالثًا: ذكر بعض النُّصوص المحذِّرة من الفتن.

رابعًا: بيان كمال الشَّريعة الَّتي جاءنا بها الرَّسول ﷺ.

خامسًا: ذكر بعض الآثار في التَّمسُّك بالسُّنَّة عند الفتن.

وأخيرًا الخاتمة ـ ختم الله لنا ولكم بخير ـ.



معنى السُّنَّة والفِتنة

أمَّا السُّنَّة لغةً فهي: الطَّريقة؛ حسنةً كانت أم قبيحةً، وهي مأخوذةٌ من السَّنن، أي الطَّريق.

وأمَّا في الاصطلاح؛ فلها تعبيراتٌ عديدةٌ عند أهل العلم، إلَّا أنَّ أشملها وأدقَّها هو قول أهل الحديث: أنَّ السُّنَّة كلُّ ما أُضيف إلى رسولِ الله ﷺ؛ من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، أو صفةٍ خَلقيَّةٍ، أو خُلقيَّةٍ.

وللسُّنَّة إطلاقاتٌ عديدةٌ؛ فيُراد بها أحيانًا (الشَّريعة) وما جاء به النَّبيُّ الكريم ﷺ عمومًا، ومن ذلك قوله ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقد تُطلق ويراد بها (السَّير على طريقة الصَّحابة ﵃، وسلف الأمَّة الصَّالح)، ومنه قولهم: فلانٌ على السُّنَّة، أي: يسير على الطَّريقة السُّنِّيَّة اعتقادًا وعملًا، ولا يخالف هديَ السَّلف ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ.

ويطلق عند الأصوليِّين ويُراد به (ما يقابل الفَرضَ والمندوبَ والمستَحبَّ).

وأمَّا الفتنة، فجَمعُها فِتَنٌ، وهي ـ كما قال الحافظ ابن حجر ﵀ ـ الاختبار والامتحان، ثمَّ استُعملت فيما أخرجته المِحنة والاختبار إلى المكروه، ثمَّ أطلقت على كلِّ مكروهٍ، أو آيلٍ إليه؛ كالكفر، والتَّحريق، والفضيحة، والفجور، والإثم، وغير ذلك، فكلُّ ما آل إلى هذا وأدَّى إليه يُعتبر فتنةً[1].



(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣).

نصوصٌ في الأمر بلزوم السُّنَّة

قد وردت نصوصٌ في الشَّريعة تحثُّ على اتِّباع رسول الله ﷺ، والتَّمسُّك بسنَّته، وهي كثيرةٌ، قال الإمام أحمد إمام أهل السُّنَّة والجماعة رحمه الله: «نظرتُ في المصحف؛ فوجدتُ فيه طاعةَ الرَّسول ﷺ في ثلاثةٍ وثلاثين موضعًا»[1].

وكونُها كثيرةً دليلٌ على أهميَّة الطَّاعة، ولزوم السُّنَّة؛ إذ فيها النَّجاة.

✍ **من تلك الآيات:**

◘ قوله ـ جلَّ في علاه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (٩٧).

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ [محمد: ٣٣] الآية.

◘ ومنها قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

◘ ومنها قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [سورة الأحزاب].

◘ ومنها قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى].

◘ ومنها قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [سورة الأنفال].

◘ ومنها قول الله ـ جلّ في علاه ـ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [سورة النساء].

◘ ومنها قول الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [سورة آل عمران] في آياتٍ كثيرةٍ.

✍ ومن السُّنَّة:

▣ قوله ﷺ لَمَّا علَّم الصَّحابة ﷺ الصَّلاةَ قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[1].

▣ وأخرج مسلم في «الصَّحيح»[2] أنَّ النَّبيَّ ﷺ في حديث جابرٍ الطَّويل في مناسكه ﷺ يقول لأصحابه: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

▣ وأخرج البخاريُّ في «الصَّحيح»[3] من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «كُلُّ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قالوا: ومَن يأبَى يا رسُول الله![4]، قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

---

(١) رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤) من حديث مالك ابن الحويرث ﷺ.

(٢) برقم (١٢٩٧).

(٣) برقم (٧٢٨٠).

(٤) كأنَّه لا يمكن ولا يُتصوَّر أن يأبى إنسانٌ أن يدخل الجنَّة.

▣ وأخرج أبو داود[1]، والتِّرمذي[2]، وابن ماجه[3]، وأحمد في «المسند»[4] وغيرهم، وهو صحيحٌ، عن العرباض ابن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً وجِلت منها القلوبُ، وذرَفت منها العيونُ، قلنا: يا رسول الله! كأنَّها موعظةُ مودِّعٍ؛ فأوصِنا، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكَ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ منكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**»، وفي زيادة: «**وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»، وهذا الحديث العظيم يبيِّن فيه النَّبيُّ ﷺ أمرين عظيمَين رئيسَين: وجوب الاتِّباع، والحذر من الابتداع.

---

(١) برقم (٤٦٠٧).

(٢) برقم (٢٦٧٦).

(٣) برقم (٤٢).

(٤) برقم (١٧١٤٤).

فقوله: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»، كأنَّهم يسألون كيف النَّجاة؟ قال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، تريدون النَّجاة؛ الزموا سنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعدي، والأحاديث في الباب كثيرةٌ.



نصوصٌ في التَّحذير منَ الفتنَة

أمَّا ما يتعلَّق بالفتنة، وما أدراكم ما الفتنة؟ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قد حذَّرنا من الفتن، فالمرء مشروعٌ له أن يتعوَّذ من أربع فتن قبل سلامِه، وذلك لعِظمها.

فالفتن أمرها خطيرٌ، وهي مُهلِكةٌ لمن تشرَّف لها، وقد حذَّر منها النَّبيُّ ﷺ في أحاديث، منها:

◘ ما رواه مسلم في «الصَّحيح»[1] من حديث حذيفة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أنكرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْل**

(١) رواه مسلم (١٤٤).

الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

وهذَا فيه خطر الفتَن؛ فإنَّك لا تعلم إذا ما تشرَّفْتَ إليها أن تكونَ ممَّن نُكت في قلبه نكتةٌ بيضاء أم سَوداء! فاحذَر من التَّعرُّض للفتن، واهرب منها هروبَك منَ الأسد.

▣ ومنها قوله ﷺ في «الصَّحيحين»[1] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «سَتكُونُ فِتَنٌ؛ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، والقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، والمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، ومَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ» أي ليهرب من تلك الفتن.

▣ وجاء في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «بَادِرُوا بالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) برقم (١١٨).

وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

والعرَض هو متاع الدُّنيا، ويشمل المال، والجاه، والمنصب، وغير ذلك.

▣ ويقول ﷺ فيما أخرجه الشَّيخان[1]: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**»، قالوا: يا رسول الله! أيُّما هو؟ قال: «**القَتْلُ، القَتْلُ**».

فهذه جملةٌ من النُّصوص الآمرة بالاتِّباع، والمحذِّرة من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وقد خطب النَّبيُّ ﷺ يومًا، فذكر أمر الدَّجَّال، وأنَّه شرُّ غائبٍ يُنتظر؛ إذ فتنتُه عظيمةٌ ـ نسأل الله أن يَقِينَا وإيَّاكم الفتن ـ.



---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٧)، ومسلم برقم (١٥٧ ـ كتاب العلم) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بيان كمال الشَّريعة

وأمَّا بيان كمال الشَّريعة:

▣ فقد جاء عند البخاري في «الصَّحيح»[1] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّه سأله سائلٌ فقال: حدِّثنا عن رسول الله في التَّوراة، فذكر من صفاته أنَّ الله عز وجل لن يقبضه حتَّى يُقيم به الملَّة العوجاء، فيقول: لا إلهَ إلَّا الله، فالنَّبيُّ ﷺ ما غادر الدُّنيا وفارقَها إلَّا وقَد أتمَّ لنا بيانَ الدِّين، وبلَّغ لنا الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصح الأمَّةَ، وجاهد في الله حقَّ جهادِه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقد شهد الله ـ جلَّ في عُلاه ـ له بذلكَ فقَال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

---

(١) برقم (٤٨٣٨).

عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وشَهد لذلكَ الصَّحابة أيضًا؛ فقَد قال ﷺ: **«تَركْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ الله، وأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»**، قالوا: نشهَدُ أَنَّك قَد بلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونصحتَ، فيشير ﷺ بأصبعه الشَّريفَة إلى السَّماء، وينكتها إلى الأرض، ويقول: **«اللَّهمَّ اشهَدْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ اشهَدْ ـ ثلاث مرَّات ـ»** أخرجه مسلم[١].

▣ وروى ابنُ جَرير في «التَّفسير» بسندٍ حسَنٍ أنَّ رجلًا جاءَ إلى أبي العَالية رحمه الله فقَال: يا إمام! ما الصِّراط المستَقيم؟ قال: هُو رسولُ الله ﷺ وصاحبَاه مِن بعدِه أبو بكر وعُمَر، فذهب الرَّجلُ إلى الإمام الحسن البصري يسأله عمَّا قاله أبو العَالية، فقالَ له الإمام الحسَن: صدَق أبو العالية، ونصح[٢].

فالمراد أنَّه إن أردتَ أن يهديَكَ اللهُ إلى الصِّراط المستَقيم؛

---

(١) برقم (١٢١٨).

(٢) انظر «تفسير الطبري» (١/ ١٧٥)، وذكر الشَّيخ أحمد شَاكر رحمه الله في تخريجه للحَديث أنَّه ثابتٌ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

فالزَم سنَّةَ رسول الله ﷺ تُهدى، وسِرْ على طريقة أصحابه مِن بعدِه وعلى رأسِهم أبو بكر وعُمَر رضي الله عنهما.

فهذه هي الشَّريعة الكاملة الغرَّاء، جاءنا بها النَّبيُّ ﷺ نقيَّةً، وتركنا وهي نقيَّةٌ، لا يزيغ عنها إلَّا هالكٌ، ما من خبر طيرٍ في السَّماء يقلِّب جناحيه إلَّا وأعطانا منه خبرًا ﷺ، وما من خيرٍ ينفعنا في الدُّنيا والآخرة إلَّا ودلَّنا عليه، وما من شرٍّ في الدُّنيا والآخرة إلَّا وحذَّرنا منه ﷺ، وهذا من نصحه وأدائه للأمانة.

ومن أجمل مَن تكلَّم عن كمال هذه الشَّريعة الإمام الهُمام شيخ الإسلام ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله في كتابه النَّافع الماتع «إعلام الموقِّعين»[1]، قال رحمه الله: «فلرسالتِه عُمُومَان محفوظان لا يتطرَّق إليهما تخصيصٌ؛ عمومٌ بالنِّسبة إلى المرسَل إليهم، وعمومٌ بالنِّسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه مَن بُعث إليه في أصول الدِّين وفروعه، فرسالته كافيةٌ شافيةٌ لا تُحوِج إلى سواها، ولا يتمُّ الإيمانُ به إلَّا بإثبات عمُوم رسالتِه في هذَا وهذَا، فلا يخرجُ أحدٌ منَ المكلَّفين عن رسالتِه، ولا يخرجُ نوعٌ

(١) (٦/ ٥١٧ ـ ط.مشهور).

من أنواع الحقِّ الَّذي تحتاجُ إليه الأمَّةُ في علومها وأعمالها عمَّا جاء به.

وقَد توفِّي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلِّب جناحيه في السَّماء إلَّا ذكر للأمَّة منه علمًا، وعلَّمهم كلَّ شيءٍ حتَّى آداب التَّخلِّي، وآداب الجماع، والنَّوم، والقيام والقعود، والأكل والشُّرب، والرُّكوب والنُّزول، والسَّفر والإقامة، والصَّمت والكلام، والعُزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصِّحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العَرش والكرسيَّ، والملائكة والجنَّ، والنَّار والجنَّة، ويومَ القيامة وما فيه حتَّى كأنَّه رأيُ عينٍ، وعرَّفهم معبودَهم وإلهَهم أتمَّ تعريفٍ حتَّى كأنَّهم يرونَه ويشاهدونَه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، وعرَّفهم الأنبياء وأُممَهم وما جرَى لهم، وما جرَى عليهم معهم حتَّى كأنَّهم كانوا بينَهم، وعرَّفَهم من طُرق الخَير والشَّرِّ دقيقَها وجليلَها ما لم يعرِّفه نبيٌّ لأمَّته قبلَه، وعرَّفَهُم ﷺ من أحوال الموت وما يكونُ بعدَه في البَرزخ، وما يحصل فيه من النَّعيم والعذَاب للرُّوح والبدَن ما لم يعرِّف به نبيٌّ غيره، وكذلك عرَّفَهُم ﷺ من أدلَّة التَّوحيد والنُّبوَّة

والمعاد، والرَّدِّ على جميع فِرق أهل الكُفر والضَّلال ما ليس لمن عرفَه حاجةٌ من بعده، اللَّهمَّ إلَّا إلى مَن يبلِّغُه إيَّاه ويبيِّنه ويوضِّح منه ما خَفيَ عليه، وكذلكَ عرَّفهم ﷺ من مكايد الحروب، ولقاءِ العدوِّ، وطُرق النَّصر والظَّفر ما لو علِموه وعملوا به ورعَوه حقَّ رعايته لم يقم لهم عدوٌّ أبدًا، وكذلك عرَّفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه الَّتي يأتيهم منها، وما يتحرَّزون به مِن كيدِه ومكرِه، وما يدفعُون به شرَّه بما لا مَزيد عليه، وكذلكَ عرَّفَهم ﷺ مِن أحوال نفوسِهم وأوصافِها ودسائسِها وكمائنها ما لا حاجةَ لهم معه إلى سواه، وكذلكَ عرَّفَهُم ﷺ مِن أمور معاشِهم ما لو علِمُوه وعملُوه لاستقَامَت لهم دُنياهُم أعظم استقامةً» انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فماذا بقي من أمر الدُّنيا والآخرة ما بيَّنه لنا رسول الله ﷺ؟!

لم يبق شيءٌ ولا ذرَّةٌ؛ كلُّ أمرٍ مُبيَّنٌ، ولكن قليلٌ من يتدبَّر ويتذكَّر، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

فكم في لزوم السُّنَّة مِن خيرٍ عظيمٍ، توافق فيه ما جاءكَ به النَّبيُّ ﷺ مِن وحي الله له: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم].

وكَم في تَرك سُنَّته من تفريطٍ وفواتِ خيرٍ كثيرٍ، لا يعلَم مدى عاقبة ذلكَ إلّا الله عزوجل.

فانتَبه ـ يا عبد الله! ـ، واحذَر مِن مخالفَة هدي رسولِ الله ﷺ في دقيق الأمُورِ وجليلِها.

والمرادُ بلزوم السُّنَّة والتَّمسُّك بها هو تعلُّمها وفقهها لتكونَ على علمٍ، وتعمل بالعلم على وجهٍ صحيحٍ، فـ«الباب إذا لم تجمع طُرقه لم يتبيَّن خطؤه» ـ كما قال الإمامُ عليُّ بن المديني رحمه الله[1] ـ، وقال إبراهيمُ بن سَعيد الجوهري رحمه الله: «الحديثُ إذا لم أروِه من مائة وجهٍ فأنَا فيه يتيم»[2]، وقال آخر: «الحديث إذا لم أروه مِن سَبعين وجهًا لم أستَوعبه»، والمرادُ منه جمع الأحاديث والنَّظر فيها على سنن أهل العلم لتُفهَم السُّنَّة على وجهها الصَّحيح، وهذا هو الرُّسوخ في العلم.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع» (٢/ ٢١٢).

(٢) «تاريخ بغداد» (٦/ ٦١٩).

مِن آثار التَّمسُّك بالسُّنَّة

إنَّ التَّمسُّكَ بالسُّنَّة ولزومَها، واجتنابَ الفتن له آثارٌ كثيرةٌ، وثمارٌ يانعةٌ في الأولى والآخرة، فمن ذلك:

◘ أنَّ المتمسِّك بالسُّنَّة بحقٍّ محصِّل للهداية والسَّلامة من الضَّلال والزَّيغ الَّذي وقَع فيه كثيرٌ، وقَد مرَّ كلام الإمام ابنِ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه ﷺ عرَّفنا طرق الضَّلال والكفر، والردَّ على تلكَ الفِرق بما لا مَزيد عليه لو علموه وعقَلوه، وقَد قال النَّبيُّ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ الله»[1]، والَّذي في كتاب الله هو الأمر بمُتابعة رسُول الله ﷺ، ويقول الله ـ جلَّ في علاه ـ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، فعلَّق الهداية بطاعته ﷺ.

(١) سبق تخريجه (ص ١٨).

إنَّ الفتَن كثيرةٌ وخطيرةٌ، ومِن ذلكَ فتنة الدَّجَّال، وهُو شرٌّ غائبٍ يُنتَظر، وقد حدَّث النَّبيُّ ﷺ أصحابَه يومًا في أمر الدَّجَّال حتَّى قال الرَّاوي: إنَّا لظننَّاه في طائفة النَّخل، مِن شدَّة تَحذير النَّبيِّ ﷺ فتنةَ الدَّجَّال، وممَّا قال النَّبيُّ ﷺ محذِّرًا أصحابه: «**إِنْ خَرَجَ وأَنَا فِيكُمْ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ، وَإِنْ خَرَجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ؛ فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ**»[(١)].

والشَّاهد من حديثه ﷺ عن الدَّجَّال أنَّه يأتي ومعه جنَّةٌ ونارٌ، ويمتحن النَّاس، ويبقى في الأرض أربعين يومًا؛ يومٌ كسَنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كأسبوعٍ، ويومٌ كسائر أيَّامكم، كما في هذا الحديث.

ويأتي إلى مكَّة والمدينة ولكنَّهما محروستان، فيقف على مشارف المدينة، فترجُف ثلاثَ رجفاتٍ، يخرج منها كلُّ مشركٍ ومنافقٍ فيتَّبعونه، ويخرج إليه رجلٌ من أهل المدينة، وفي روايةٍ شابٌّ من أهل المدينة، فإذا لقيه قال: ماذا تقول فيَّ؟ فيكفُر به فيقطِّعه الدَّجَّالُ إلى نصفين، فيمرُّ من خلاله، ثمَّ يرجع الرَّجل كما كان، ثمَّ يقول له: ماذا تقول؟ فيقول: ما ازددت بك إلَّا كفرًا، أنت الَّذي

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النَّواس بن سمعان رضي الله عنه.

أخبرنا عنك رسولُ الله ﷺ، ثمَّ يحاول قتلَه ثانيةً فلا يستطيع.

ويقول للسَّماء: أمطري فتُمطر، وللأرض: أنبِتي فتُنبِت، وتُخرج له الأرض كنوزَها.

وهذه فتنةٌ عظيمةٌ للمفتونين.

فهذا الشَّاب ـ وهو من الطَّائفة المنصورة والفرقة النَّاجية ـ احتجَّ على ضلال هذا الدَّجَّال العظيم ـ الَّذي فتَن النَّاس ـ بمنهج النَّبيِّ ﷺ، وبحديث رسول الله ﷺ، فلجأ والتزم بالمنهج المعصُوم الَّذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يدَيْه ولا مِن خلفِه.

ففي لزوم السُّنَّة تحصيلٌ للهدَاية، وأمنٌ منَ الزَّيغ والضَّلالة، ولهذا جاء عند الدَّارمي بسندٍ صحيحٍ[1] أنَّ الإمام الزُّهريَّ قال: «كان مَن مضَى مِن عُلمائِنا يقُول: الاعتصام بالسُّنَّة نجاةٌ»، وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ الله: «السُّنَّة مثل سفينة نوحٍ؛ مَن ركبَها نجَا، ومَن تخلَّفَ عنها هَلَك».

هذه ثمرةٌ عظيمةٌ، إيَّاك أن تفرِّط فيها.

---

(١) برقم (٩٧).

◘ أنَّ المتمسِّك بالسُّنة بحقٍّ معصومٌ بإذن الله تحقيقًا، وآمنٌ من الوقوع في الاختلاف والفرقة المذمومين.

نصوص الوحيين تأمُر بالاجتماع والائتلاف والاتِّفاق، لا الافتراق والمخالفَة والمفارقَة.

تأمر بالاجتماع على الحقِّ وبالحقِّ، فالله ـ جلَّ في علاه ـ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فمَن لزمَ السُّنَّة واعتَصم بها بحقٍّ أمِن منَ الوقُوع في الاختلاف المذمُوم الَّذي قال الله فيه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]، ويقول الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام].

ويقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ ثَلَاثًا؛ يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ**

تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»[1]، زاد الإمام أحمد في «المسند»: «وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ».

قال الإمام ابن عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللهُ في «التَّمهيد»[2] عند هذا الحديث: «فيه الحضُّ على الاعتصام والتَّمسُّك بحبل الله في حال اجتماع وائتلاف، وحبل الله في هذا الموضع فيه قولان: أحدهما كتاب الله، والآخر الجماعة، ولا جماعة إلَّا بإمامٍ».

ثمَّ قال: «وهو عندي معنًى متداخلٌ متقاربٌ؛ لأنَّ كتاب الله يأمر بالأُلفَة، وينهى عن التَّفرُّق» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

فالمتمسِّك بالسُّنَّة معتصمٌ بحبل الله ـ جلَّ وعلا ـ، متمسِّكٌ بهدي رسول الله ﷺ، يجتمع على الحقِّ وبالحقِّ وفي الحقِّ.

ومِن علاماتِ أهل الأهواء والضَّلال الفُرقة ومفارقة الحقِّ وأهلِه، قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٨٧٩٩).

(٢) (٢١/ ٢٧٢).

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال النبيُّ ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ» الحديث كما مرَّ[1].

وهذا الاختلافُ الكثير يتَّضح بمعنَى قوله - جلَّ وعلا -: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة].

يقولُ الإمام ابنُ جرير رحمه الله في «التَّفسير» عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾: «يعني بالنُّور محمَّدًا ﷺ الَّذي محا اللهُ به الشِّرك، وأظهر به

(١) (ص ١٢).

التَّوحيد؛ فهو نورٌ لمن استنار به»[1].

فمَن لزمَ السُّنَّة هدَاه السَّبيل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾، جمع الظُّلمات، وأفرد النُّور؛ لأنَّ الظُّلمات كثيرةٌ، فِرق كثيرةٌ مخالفةٌ للسُّنَّة ومفارقَةٌ لها، بعضها يدعو إلى الكُفر ـ والعياذ بالله ـ، وبعضها سبَّابةٌ للصَّحابة طعَّانةٌ في عرض رسول الله ﷺ.

وقوله ﷺ: «**فَسَيَرَى اختلافًا**» نكرةٌ في هذا السِّياق تعُمُّ، وأكَّدها ﷺ بقوله «**كَثِيرًا**».

ثمَّ قال: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**» فطريق النَّجاة واحدٌ.



---

(١) (١٠/ ١٤٣).

الخاتمة

ـ ختَم اللهُ لنا بالخَير ـ

أخرج الإمامُ البُخاري رَحِمَهُ اللهُ في «الصَّحيح»[1] من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يخطبُ الجمعَة على نخلةٍ ـ أو شجرةٍ ـ، فقال له رجلٌ من الأنصار، أو امرأةٌ من الأنصار: ألا نصنَع لكَ منبرًا يا رسُول الله؟! قال: «إِنْ شِئْتُمْ»، فلمَّا كان في الجمعة الَّتي تلت قد صنعوا المنبر دفع ﷺ إلى المنبر، فلمَّا صعد المنبر سمعَ صوتًا وأنينًا من الشَّجرة أو النَّخلة تئِنُّ أنينًا، فنزل النَّبيُّ ﷺ من على المنبر فضمَّها إليه، يقول الصَّحابيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تئنُّ أنين الصَّبيِّ الَّذي يُسكَّن، فقال ﷺ: «كَانَتْ تَبْكِي لِمَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»، ولهذا كان الإمام الحسن

---

(١) برقم (٣٥٨٤).

البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ويقول: «يا معشر المسلمين! الخشبة تحِنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائِه؛ فأنتُم أحقُّ أن تشتَاقُوا إليه»[1].

هكذا يجبُ أن نلزمَ السُّنَّةَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، في وقت الفتَن وفي غيرِها، فهذا رسول الله ﷺ إمام المتَّقين كيف صبر، وكيف لاقَى وأصحابُه مِن بعده، ولنا في أئمَّة الإسلام مِن سَلف الأمَّة الصَّالح خيرُ قدوةٍ، فهذا الإمام أحمد إمام أهل السُّنَّة كم لقي في سَبيل الله مِن أذًى وصبر؛ جُلد وضُرب وحُبس حتَّى إنَّ الجلَّاد ليقول: يا إمام! لقد جلدتُك بسياطٍ لو جُلدها بعيرٌ لمات، وكان يقول: ما هو إلَّا سوطٌ فثَانٍ ثمَّ لا تشعر.

وكان من تيسير الله للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الفتنة أن هيَّأ له رجلًا سجينًا معه قال له: يا إمام! أنا أُجلد في حدٍّ من حدود الله، وأصبر، وأنت تُجلد في ذات الله ولا تصبر؟! اصبر.

فكم صبر هذا الإمام؟ ولذا بقي ذكرُه، وبقيَت السُّنَّةُ

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٠٢).

التي حافظ عليها رحمه الله.

وهذا الإمام ابنُ تيميَّة شيخ الإسلام، كم أوذي في سبيل الله؛ سُجن في القَلعة، وفي مصر، ولمَّا أُدخل السِّجن قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحديد].

يقول أخوه كما في «البداية والنِّهاية»[1]: «ختمتُ أنا وأخي شيخ الإسلام القرآنَ في السَّجنة الأخيرة ثمانين ختمةً حتَّى شرعنا في الواحدة والثَّمانين إلى أن بلغَ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة القمر]، قال: فخرجَت روحُه عندها، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]».

نسأل الله ـ جلَّ في علاه ـ أن يثبِّتنا على السُّنَّة، وأن يُجنِّبنا الفتنَ ما ظهر منها وما بطَن، إنَّه سميعٌ مجيبٌ، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلَّم.

---

(١) (١٨/ ٣٠٠ ـ هجر).